تحفة الأردن الخالدة
خارطة الفسيفساء
في (مادبا)

للأستاذ / روكس بن زائد العزيزي

تعريف بـ (مادبا) (١)

(مادبا) كلمة سامية ، معناها : « مكان طيب » او « مياه هادئة » وهي مدينة سياحية ، احتفظت باسمها هذا منذ اقدم العصور . وتقع جنوبي (عمّان) عاصمة الأردن ، بانحراف قليل الى الغرب . وقد ورد ذكر (مادبا) في نصب (ميشع) (٢) يوم اضحت سهوبها مسرحا لحروب دامية .

وقد أصاب (مادبا) دمار تام ، يوم استولى عليها (الاشوريون) ، في عداد ما استولوا عليه في الاردن ، فظلت موءودة من المائة التاسعة قبل الميلاد ، الى المائة الثانية بعد الميلاد ، يوم جدد الأنباط حياتها .

الأدوار التي مرت بها (مادبا) : —

وقد مرّت (مادبا) بادوار عديدة ، فكانت : —

أ — مدينة مؤابيّة .

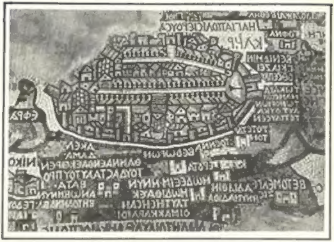

ب — ومن المؤابيين ، تسلمها الانباط ، الذين اتخذوا (بطرا) — سلع — عاصمة لهم ، وقد تكلم اهلها لغة الانباط ، معتزين بعروبتهم .

ج — وبعد الانباط خضعت لسلطة رومية ، فازدهرت ، وكان فيها دار لسك النقود .

د — ثم حكمها البيزنطيون .

ه — ومنهم انتزعها الفرس .

و — ثم استولى عليها العرب .

وقد نكبت (مادبا) بزلازل دمرتها ، ووأدتها تحت اطباق الثرى ، وأشهر تلك الزلازل ، زلزال سنة ١٠٣٣ للميلاد الذي استمر اربعين يوماً متتالية . (*) وقد هدم مع (مادبا) كلاً من (اريحا) و (نابلس) واباد سكان هذه المدن ، ابادة تامة ، الا من هرب ، قبل ان يدرك مدينته واهلها الوأد ! .

تحفة الاردن الخالدة خارطة الفسيفساء في مادبا وكيف اكتشفت زائر (مادبا) لا بد له من أن يزور التحفة الخالدة . التي عزّ نظيرها في عالم الآثار . اعني بها (خارطة الفسيفساء) التي ابقتها يد الفنان الاردني (سليمان) — سلمانوس —

أما كيف اكتشفت هذه التحفة . فان الدولة العثمانية ، كانت قد وهبت (خربة مادبا) سنة ١٨٨٠ لثلاث عشائر ، هي : —

أ — عشيرة العَزَيْزات .

ب — عشيرة الكَرادشة .

ج — عشيرة المَعَاعْبِة . ويسمون نفسهم اليوم (المعايعة) تفريقاً بينهم وبين المعاعية . احدى فرق عشيرة (الأزايدة) .

وبعد ان اقامت هذه العشائر في كهوف (مادبا) . حاولت ان تبنى لها مساكن . ومعابد . فعثر أحد رهبان الروم الارثوزكس سنة ١٨٨٤ على تلك الخارطة . فكتب رسالة الى بطريرك الروم الارثوزكس في (القدس) . يخبره بامر هذه التحفة النادرة . التي تشمل على اسماء مدن في شرقي الاردن . وفي فلسطين . غير ان تلك الرسالة . ظلت بلا جواب الى سنة ١٨٩٠ حيث عثر عليها اتفاقا . بطريرك الروم الارثوزكس في القدس . المدعو (جراسيموس) خليفة البطريرك الذي تسلم رسالة الراهب . ولم يجب عنها . وكان البطريرك (جراسيموس) هذا محباً للآثار . فانفذ للحال مهندساً الى (مادبا) وأمره بأن يدخل الخارطة . في بناء كنيسة الروم الارثوذكس التى اختير لها موضع تلك الخارطة . التي سلم الجزء الكبير منها من غارات الاطفال . الذين كانوا يغيرون على تلك المكعبات ويقتلعونها ليمارسوا العابهم بها .

ويشاء حظ العلم . ان يزور (مادبا) في تلك السنة احد علماء الآثار . فينشر وصفا لقسم صغير من هذه التحفة . يمثل البحر الميت . وسفينة . وكتابة مأخوذة عن (بركة يعقوب) .

وقد شهد أربعة من رهبان الروم الارثوزكس . انهم رأوا الخارطة — قبل ان يعبث بها العمال — صالحة . لكن العمال . دمروا قسماً منها ! ..

أما المهندس الذي ارسله البطريرك للاشراف على بناء الكنيسة . فانه لما انجز البناء . وضم الخارطة الى صحن الكنيسة . عاد . واخبر البطريرك ان الخارطة . ليست لها تلك القيمة التي يصفون ! ..

لكن هناك من قال : " انه لم يعثر على الخارطة كاملة . الا عندما كاد العمال ينهون فرش الكنيسة بالبلاط . (٤)

مدير مكتبة دير الروم ينبه على اهمية هذه الخارطة —

وفي خريف سنة ١٨٩٦ . زار (مادبا) مدير مكتبة دير الروم الارثوزكس في القدس المدعو (كليوفاس كريكيلس) . وهو يوناني الاصل ومن خريجي (اثينة) وكان مولعا بالتاريخ . والآثار . فما أن رأى تلك التحفة . حتى ذهل لقيمتها النادرة الوجود في العالم . وحزن لما اصابها من دمار . وسارع حالا . الى نقل ما عليها من الكتابات . وخطط لها رسما اوليا نشره سنة ١٨٩٧ .

فكان مقاله والرسم الملحق به . سببا للاحتفاظ بما بقي من هذه الخارطة . ولتوجيه الانظار في عالم الآثار الى تحفة الاردن الخالدة . ودرة (مادبا) الواسطة . ومنذ ذلك التاريخ . اخذ علماء الآثار يتوافدون على (مادبا) .

عالمان يزوران ويدرسان خارطة الفسيفساء المادبية : —

سمع العلامة (فنسان) (٥) والعلامة (لاغرانج) (٦) بهذه الخارطة فزارا (مادبا) في شباط سنة ١٨٩٧ ، وقضيا فيها اربعة ايام . درسا خلالها الخارطة فخرجا بنتيجة ، هي انها من اعظم الآثار . ثم نشر (لاغرانج) عنها مقالاً ضافياً ، ما يزال حتى اليوم مرجعا رئيسا عنها . وفي اذار سنة ١٨٩٧ ، بلغ الامر اكاديمية المخطوطات في (باريس) ، فاهتمت بالامر ، فطبع مقال (لاغرانج) في الخامس والعشرين من اذار سنة ١٨٩٧ طبعة منفردة ، ووزع في (باريس) فتوجهت انظار علماء الآثار الى هذه التحفة النادرة .

اما (فنسان) فانه قد خدم الآثار ، وخدم هذه الخارطة ، بانه قد رسمها ، وجعل رؤيتها ميسرة لكل من اراد رؤيتها . وكان عمله موقظاً همة علماء صنعوا مثل صنيعه منهم : —

أ — العالم (جيرميه ديران)
ب — والعالم (وستفنسون)
ج — وعالم روسي مجهول .

وقد استخدم رسومهم ، مؤرخو الخارطة التالون .

رسم الخارطة بالوانها الطبيعية —

ثم انبرى لرسم هذه الخارطة بالوانها الطبيعية كل من :
أ — (بلمر) ب — و (غوته)

كان ذلك سنة ١٩٠٢ ، لكن هذا الرسم الملون لم ينشر الا سنة ١٩٠٦ في عشر صور ، بهذا العنوان : THE MADABA MOSAIC. I-X

خارطة موزاييك مادبا (٧)

ورسم (ابلمر) و (غوته) أقرب الرسوم شبها بهذه الخارطة .

تحقيق صحة هذه الخارطة وصدقها

كل ما تقدم ، لم يقنع (فكتور غولد) العالم المحقق . فجاء الى (مادبا) . وحقق في المكان نفسه ، صحة ماسبق كله . في شهر تشرين الاول سنة ١٩٥١ ولعل اهم بحث تناول هذه التحفة الخالدة ، بامتياز ، تفوّق على كل ما سبقه من بحوث ، ملأت مجلات الآثار ، هو ذلك المقال المسهب ، الشامل ، المثبت في معجم الآثار ، في ملحق معجم التوراة المنشور

سنة ١٩٥٣ ، وفي كتاب جعل وقفاً على هذه الخارطة سنة ١٩٥٤ (٨)

ماذا نلاحظ عند النظرة الاولى الى هذه الخارطة ؟

ان النظرة الاولى الى هذه الخارطة ، تثبت لنا انها قد رممت مرتين : —

أ — المرة الاولى تمت بوحدات من مكعبة من الفسيفساء ثبتت في الاماكن التي عبث بها محطمو الصور ، لانها كانت تشتمل على كائنات حية — مثل البحارين الاربعة ، المسافرين في البحر الميت ، والاسد المهاجم ظبية ، في صحراء مؤاب — وقد يجري هذا الترميم ما بين سنة ٧١٧ — سنة ٧٢٠ م .

ب — والترميم الثاني وهو من النوع ، غير الفني ، الذي غرضه ملء الفراغ ، وقد جرى يوم تم اكتشاف هذه التحفة النادرة .

وقد كان حسن الحظ يخدم الآثار والتاريخ ، لان التدمير لم يصب مدناً من (آسيا الصغرى) ، كما قال بعض علماء الآثار .

واذا نظرنا الى الخارطة ، بوضعها الطبيعي ، وجدنا محورها مدينة (القدس) ووجدنا الخارطة تنتهي جنوبا بـ (النيل) مع احتمال انه وجد فروع لـ (النيل) وصورة لـ (الاسكندرية) من هذه الناحية . تصل شمالاً الى (صرفت) — صرفند حالياً — ويحتمل انها تضم (صيدا) وقد عثر على فسيفساء في احد بيوت (مادبا) ورد فيها اسم (صرفت) ومعه هذه الكلمات : « صرفت . الضيعة الطويلة . هناك اقيم الصبي في ذلك اليوم » (٩) ولا شك في ان هذا الاثر . كان اصلاً في القسم الشمالي من الخارطة ، التي لم يكن في وسع صانعها ان يوسعها جنوبا وشمالا ، اكثر مما صنع ، بسبب جدران المعبد الذي صنعت الخارطة لتجميله . أما غرباً ، فكنت ترى البحر المتوسط ، وقد بقي شيء منه . والذي ثبت ، هو ان القسم الخاص بالاردن من الخارطة ، لم يكن يتعدى مدينة الكرك . اذ فالخارطة ، كانت تحتل حيزاً معينا من المعبد القديم . فقد قدر طول الخارطة الاصلي باربعة وعشرين متراً (٢٤) وعرضها بستة امتار (٦) ما عدا اطار الزينة (١٠)

وقد كان اتجاه الخارطة الى الشرق ، وفقا لاتجاه المعابد ، بحيث كان يسهل على من يتجه الى الشرق ، ان يرى الخارطة ، ويقرأها ، لذلك نرى جميع الابنية المثبتة في هذه الخارطة ، مواجهة لمن يستقبل الشرق .

وصف الخارطة : —

الخارطة — أصلاً — وضعت للارض المقدسة . لذا فانها كانت تشمل (فلسطين) و (شرقي الاردن) فمن هنا نعلم انها وضعت في ضوء (التوراة) و (الانجيل) وقد ورد فيها ما يقرب من نصف الاماكن المذكورة في الانجيل . ولا سيما (انجيل يوحنا) وقدمت لنا معلومات وافية ، عن الايام البيزنطية . ومما تمتاز به هذه الخارطة ، ان صانعها ، كان يضع اسماء المدن والاماكن القديمة ، والاسماء المعاصرة لصنع الخارطة . وفوق هذا ، انه يرد في الخارطة — احياناً — ذكر لما جرى من الحوادث في بعض الاماكن ، وفي بعض الصحارى خاصة . وتثبت نصوصا — في الغالب — مأخوذة من بركة (يعقوب) و (موسى) وقد خطت الكتابات باللون الاسود ، ما عدا ما ورد منها في الجبال . فانه خط باللون الابيض — وكله بمكعبات من الحجر — اما الكتابات المهمة . فانها خطت باللون الاحمر . كاسماء المدن الشهيرة مثل (القدس) و (بيت لحم) .

وقد اختيرت المدن الواردة في الخارطة . اما لكونها مهمة . واما لوقوع حوادث ذات قيمة تاريخية . جرت فيها . واحيانا وردت بعض البلدان لملء الفراغ . لان رجال الفن في الشرق . كانوا ينفرون من ابقاء الفراغ في اعمالهم . (HORROR VACUI)

ومثلت طبيعة البلاد بجبالها ، وبحارها ، وانهارها . لما لها من الاهمية . واحيانا لملء الفراغ . ولاحياء الخارطة نفسها زيدت مناظر بشرية . وصور سفن . وحيوانات ، وأسماك . ونباتات .

اسلوب رجل الفن المادبي —

اذا نحن نظرنا الى وضع الخارطة ، ادركنا ان صاحب الفن ، ومن معه من المساعدين ، كانوا عندما صوروا المدن الكبيرة مثل (القدس) وغيرها يعينون لكل واحدة منها مكانها ، وكانوا يصورون المدينة قبل تصويرهم للجبال ، ولنهر الاردن . وقد اكتفوا — احيانا — بالفسحة الضيقة الباقية لذكر ما ارادوا من الكلام ، واحيانا كانوا يهملون الحاق الضيع باسمائها ، كما وقع في ضيع عديدة في السهل الساحلي .

وقد جعل صاحب الفن للمدن نسبة امتداد تناسب مقام المدينة ، واهميتها ، وتقليدا للاغريق ، وللمصريين ، ولسكان ما بين النهرين ، ابرزوا المدن كأنها مدن صورت من الطيّارة ، مجموعة بكل ما فيها من بنايات ، ضمن مربع اسود . كما لو انها جعلت زخارف في بساط شرقي .

وقد أظهر المدن الكبرى بميزتها الخاصة ، فصور (القدس) و (غزّة) بشارعيها الرئيسين ، و (اللد) بساحبا البيضية ، و (بيت جبرين) بعينها المستديرة ، و (الكرك) بصخرتها العالية . أما الضيع ، فيمتاز بعضها من بعض بعلو السطوح ، ولا سيما بتعددالابراج المرتفعة ، فوق سور المدينة ، وذلك تقليدا للطراز الاغريقي .(١١) وفي الخارطة ابنية شتى : — من معابد ، معظمها أبنية صغيرة بسطح مائل من الأجر الاحمر ، نقلاً عن تصوير الهياكل في الخارطات الرومانية ، وفيها حمام غربي (الكرك) ومستنقعات في (الزّارة) وفيها معبر في (نهر الاردن) وبرج بقربه .

وقد تفوق الفنان الاردني — المادبي — في عرضه جمال المناظر الفلسطينية بمختلف الالوان ، فصوَّر الجبال سوداً سواداً متاوجاً ، بحسب سطح الارض ، وصور (سيناء) بنوع من الالوان يضاهي اجمل ما صوره الرحالة لمكان . وصور وادي الاردن بلون أبيض .

مشتملات الخارطة —

تشمل الخارطة على معظم البحر الميت — بحيرة لوط — وقسم من الحجر المتوسط ، غير ما تقدم ذكره من مدن وجبال ، وقد جعل امواجها تتماوج ، ما بين اللون الازرق ، والبني ، والابيض ، كأن زوبعة — في يوم عاصف — قد غشت تلك الامواج . وقد جعل مجرى نهر الاردن ونهر النيل مفروشين بهذه الالوان نفسها ، وقد اتقن اتقانا مذهلا ، تصوير وادي الموجب (أرنون) ووادي (الحسا) اللذين يظهران من فوق الصخور ، فيجري كل منهما في منبسط اخضر بين الجبال متجهين نحو البحر الميت ، الامر الذي يدل على ان الفنان المادبي ، صانع هذه التحفة الخالدة ، شديد التعلق بلواء (ماديا) ، وسائر (موآب) .

اخيرا ، نجد في هذه الخارطة صورة لاربعة ملاحين ، في البحر الميت ، وصورة اسد يطارد ظبية في سهول موآب ، واربع سمكات في الاردن ، كان واحدة منهن تحاول الهرب . وسبع سمكات في النيل ، وبعض شجرات النخيل ، وحبّات بلح حمر ، قد سقطن . وغيرها .

عهد الخارطة : —

ان الخراب الذي اصاب هذه الخارطة ، لم يبق من الكتابات التي عليها ، سوى كلمات لا تستطيع ان تعطينا احكاما جازمة . وهناك هذه الكلمات الباقية : « من شعب مدينة مادبا هذه محبة المسيح » لذلك نرانا مضطرين الى ان نبحث عن كتابات قريبة من هذه الخارطة ، لعلها تضع في يدنا دليلا نتكىء عليه .

فعلى بعد مائة متر من مكان الخارطة ، نجد بئرا ، كتبت — في جانبها الغربي — هذه الكلمات : « رمّم في عهد (يوستينانوس) ملك الرومان » وقد تبين لنا ، ان زمن الفسيفساء في (مادبا البيزنطية) يتراوح — خاصة ما بين سنة ٥٧٨ م — اي بعد موت (يوستينانوس) بقليل — وسنة ٦٠٨ . فوق هذا ، فان التشابه الذي بين فسيفساء (مادبا) و (جرش) و (ماعين) يوحي بان الخارطة صنعت في اواسط القرن السادس للميلاد . ولا سيما ان الخارطة تشمل كنيسة (العذراء) في (القدس) — NEA — التي دشنها (يوستينانوس) سنة ٥٤٣ . وهي احدث بناء اشتملت عليه الخارطة .

ثم ان التشابه بين فن الخارطة ، وفن (كنيسة الرسل) في (مادبا) — التي زينها (سلمانوس) ، وفرغ منها سنة ٥٧٨ يعطينا دليلا . على ان (سلمانوس) — سلمان — هو صاحب هذه التحفة الخالدة . (١٢) وقد كان (سلمان) هذا عالما ، مدققا ، خبيرا بمنطقة (موآب) و (مادبا) و (مدينة القدس) . ودقة عمله ، تثبت لنا انه كان هائما بفنه ، هياما ، ما بعده من هيام ! .

صانع الخارطة اعتمد على مرجع قديم

صانع خارطة (مادبا) على ما يبدو ، لم يكتف بمعلوماته الشخصية ، بل اعتمد على بعض المصادر ، التي امدته بمعلومات قيمة . لان اوائل الذين درسوا هذه الخارطة لاحظوا ان لها صلة شديدة بكتاب يدعى (الاونوما ستكون) لمؤلفه (اوسابيوس القيصري) (١٣) مع الخروج عن رأي مؤلف (الاونوما ستكون) اختيرت لها المدن التي على الطرق الرسمية وفوق هذا فان واضع خارطة (مادبا) استعان بخارطة تصويرية تبين لمراكز ميزة كل مدينة لم بر ميزة مدينة ، في العهد الذي عظمت فيه اهمية الارض المقدسة . لانها تشتمل على الاسماء التي

وردت في التوراة والانجيل مرتبة على الحروف الابجدية ، مصحوبة ببعض الوصف ، وقد ترجمه واتمه القديس (ايرونيموس) (١٤)

قيمة هذه الخارطة : —

لقد مضى على انجاز الخارطة ثلاثة عشرة نا ، ولم يعثر على شبيه لها ، من اجل هذا احتفظت بمقام فريد ، وقيمة لا تضاهى في تاريخ الخارطات ، لان الماضي لم يترك لنا خارطة لفلسطين ، غير خارطة (مادبا) وسوى الخارطة التي تدعى (TABULA PEUTINGERIANA) التي تمثل طرق الامبراطورية الرومانية ، على رق عرضه ٣٤ سم وطوله ٦ ستة امتار ، وهذه الخارطة ، يرتقي عهدها ، الى القرن الثالث بعد الميلاد ، وقد وصلت الينا عن طريق نسخة استنسخها عنها احد الرهبان ، في القرن الثالث عشر ، وقد عثر على نسخة الراهب هذه في أواخر القرن الخامس عشر فسلمها الذى عثر عليها إلى صديق له من رجال الآثار الالمانيين في (اوغسبورغ) واسمه : كونوراد بويتنجر (CONRAD PEUTINGER) فدعيت الخارطة باسمه ، وهي الان في (فينا) (١٥)

تسهيلات لدراسة هذه الخارطة : —

تسهيلا لدراسة هذه الخارطة ، قسمت الى اربعة اقسام : —

١ — القسم الشرقي من الخارطة ، يشتمل على نهر الاردن ، والبحر الميت ، وشرقي الاردن .

٢ — القسم الشمالي الشرقي من الخارطة يشتمل على ضواحي اريحا والسامره .

٣ — القسم الثالث وهو الاوسط ، ويشتمل على ضواحي القدس واللد والبحر الميت .

٤ — القسم الرابع ، يشتمل على الخليل ، والساحل الفلسطيني والنيل .

وعلينا ان نعلم ان مدينة (القدس) ، هي محور خارطة (مادبا) ، وقد اعتمد صانع هذه الخارطة على الجهات الاصلية الطبيعية ، ولم يتبع اصطلاح الخارطة المتعارف عليه ، فالجهات هكذا : —

الشرق

الجنوب

الشمال

الغرب

وزائر الاردن ، للاطلاع على آثارها ، تعد زيارته محققة ، ان لم يزر (مادبا) ويطلع على تحفتها الخالدة .

هوامش ومراجع

(١) مادبا وضواحيها صفحة ٤ طبعة ١٩٦١ .

(٢) ميشع هو ملك مؤاب . وهو الذي هاجمه ملك اسرائيل ويهوذا وادوم من الجنوب ، ولما اشتدت عليه الحرب ، اخذ ابنه البكر ، وولي عهده فاحرقه محرقة على سور (الكرك) ، فارتدعنه محاصروه . وقد ترك لنا ميشع نصباً فيه ايامه — وسكت عن الذل الذي لحقه في بعض المواقع — ولغة هذا النصب حروفه لشبه العبرية وحروفها ، وقد وجد هذا النصب سائح الماني اسمه (كلاين) سنة ١٨٦٨ ، وقد اخذعنه المستشرق الفرنسي (كلرمون غانو) صورة ، وتمكن من شراء معظم هذا النصب الموجود الآن في (متحف اللوفر) في (باريس) راجع الصفحة السادسة من تاريخ مادبا وضواحيها ، للوقوف على ترجمة الجزء المهم من هذا الاثر .

(٣) مادبا وضواحيها صفحة ١٣١ .

(٤) مادبا وضواحيها ص ٥٤/٥٥ .

(٥) فنسان عالم من علماء الأثار من رهبان الدومنيكان عاش في القدس .

(٦) لاغرانج من علماء الأثار وهو دومنيكي ايضا ، عاش في القدس .

(٧) مادبا وضواحيها ص ٥٥ Hlecle Rq : 815-860 T.xApt. Madaba

(٨) وفي ملحق معجم التوراة سنة ١٩٥٣ O'callaghan 627-704

(٩) مادبا وضواحيها ص ٥٦ سفر الملوك O'callaghan 702-703 The Madba 77

(١٠) مادبا وضواحيها ص ٥٦ سفر الملوك

(١١) تاريخ مادبا وضواحيها ص ٥٨ The Madba 15

(١٢) تاريخ مادبا وضواحيها ص ٥٩

(١٣) اوسابيوس القيصري عاش في (فلسطين) سنة ٢٦٠ — ٣٤٠ م وكان متضلعاً في العلوم التاريخية ، وقد أبقى لنا به كتابه الذي ذكرناه وهو مؤلف ثمين في ما يخص جغرافية الارض المقدسة .

(١٤) هو (Jerome) ولد في (ستريدون) . ايطاليا . قضى زمناً متنسكاً بالقرب من حلب ثم انتقل الى (بيت لحم) صاحب تفاسيرالكتاب المقدس ترجم الى اللاتينية وهو الذي ترجم التوراة والانجيل واعتبرت ترجمته هي النص القانوني .

(١٥) تاريخ مادبا ص ٦٠ .

• ملاحظة : — تاريخ ماد — هو الكتاب المعروف بـ (مادبا وضواحيها) او صفحات من التاريخ الاردني ومن حياة البادية تأليف (سابا) و (القريزي) طبع في القدس سنة ١٩٦١ .

• ملاحظة ثانية : في ال ٢٩ من شهر اذار سنة ١٩٨٠ ، يكون قد مرت على انشاء (مادبا) الحديثة . او احياء مادبا مائة سنة تماما .